آثارنا

مَن تراه يؤدي رسالة وطنية إنسانية تهدف إلى خدمة تراثنا، وحماية آثارنا، والدفاع بمنتهى الإخلاص، عن تلك الأبنية القديمة التي تتعرّض للهدم والسرقة، رغم ما تحويه من نقوش بديعة، ومن مقرنصات وأعمدة وحنايا، يتجلى فيها الفن الروماني واليوناني والفينيقي.. بأجلى مظاهره وأجمل صوره؟

رفعتُ إلى مسؤولين وحتى رجالات فكر وإعلام، وأصحاب وعي وغيرة ظاهرة على مخلفات الحضارة وتلك التي ترقى إلى الآباء والأجداد، مذكرات مسهبة، أوضحتُ فيها تلك الجائحة القديمة المتجددة الشديدة الوطأة، التي تتعرّض لها المدن اللبنانية عموماً، ومدينة صور مسقط رأس والدتي على الأخص وكذلك مدينة جبيل الأقدم في العالم التي أقطن فيها وأفاخر.

انها جائحة خطرة يقوم بها تجّار الأبنية والأراضي، فيعمدون إلى هدم البيوت المشيّدة على الطراز الشرقي واللبناني الأنيق المستحب، ليقيموا على أنقاضها أبنية كعلب العطارين، بعضها فوق بعضها الآخر، وكل همّهم الربح الوافر والثراء العاجل.

وكثيراً ما هُدمت أبنية كانت على جانب كبير من الحسن والمتانة ودقة النقش والزخرفة. أبنية مثلت بوضوح الذوق العربي أو اللبناني السليم. ففي مدينة جونيه وحدها، عبث الطامعون بعشرات من أفخم البنايات واستبدلوا بها مساكن لا تمتاز إلّا بما تدرّه على أصحابها من ريع كبير.

منذ عام ١٩٧٩ انشأتُ مع بعض الرفاق «الاتحاد اللبناني للحفاظ البيئة» وحاضرتُ في زحلة وجبيل وجونيه وطرابلس والنبطية وسواها حول هدم البيئة فضلاً عن تلوّثها وإنما عبثاً! طالبتُ بالحفاظ على البيوتات القرميدية القديمة في مدينة جونيه وسواها ولكن كلامي ذهب أدراج الرياح.

شاركتُ في مؤتمرات وندوات عالمية وخضتُ مناقشات حامية ترمي إلى صيانة كل أثر نفيس، والمحافظة على كل دار فيها من فن العمارة طابع أصيل وجميل. في حماية آثارنا القديمة وآثار سوانا على أرضنا، حماية للتاريخ والتراث والفنون الرفيعة، ومورد مادي من السوّاح، وأدلة هي أسطع من الأدلة التاريخية أو الاحصائية. في مدينة صور مثلاً، آثار أو بقايا آثار منثورة في كل الأنحاء وهي تحت رحمة أعدائنا الجنوبيين وبعض المتطفلين المحليين.

مدننا عريقة عزيزة تُطالب كل الشرفاء العقلاء من أبنائها و«المسؤولين» المعنيين وغير المعنيين أن يكونوا غيارى على تلك الآثار النادرة وأن يحافظوا على التراث الهندسي وألا يفرّطوا بأي أثر من تلك الآثار، لأنَّ ما يُفرَّط به لا يعوَّض ولا يثبّت المواطنين في وطنهم، ولأن تلك المدن متاحف متكاملة تضم أطرزة من البناء مختلفة، رائعة، نادرة المثال. متى يقظة الوزارات المختصة ومديرية الآثار قبل أن يقضي على البقية الباقية من دورنا القديمة ومخلفات الحضارات المتعاقبة؟

آثارنا ودورنا القديمة، ملك للتاريخ والعلم والفن والإنسانية جمعاء، فلنتركها في حرم التاريخ تعزيزاً أقله لجغرافيتنا.

١

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه